دراسة مقارنة لأساليب القتال الإسلامية، الصليبية
-عصر الحروب الصليبية-

د.كمال بن مارس
جامعة 8 ماي 1945 قالمة-الجزائر

مقدمة :

إن سرعة التوغل الصليبي في بلاد الشام و الهزائم المتتالية التي ألحقوها بالمسلمين في ضوريليوم وقونية وأنطاكية وبيت المقدس وغيرها دون أن ننسى تلك الإمارات التي زرعوها في المنطقة بعد الحملة الصليبية الأولى، في بيت المقدس و الرها و أنطاكية ثم طرابلس، أثارت تساؤلات عن حقيقة القوة الإسلامية المتواجدة في المنطقة آنذاك و المتمثلة في السلاجقة، لذلك تحتم علينا أن نكتب في الأساليب القتالية لدى الطرفين كي يتسنى لنا المعرفة بها من جهة، ومن جهة ثانية كي نعلم بأن القوة العسكرية لا تكفي وحدها للنصر، ومن جهة ثالثة لنؤكد أن الداء الحقيقي الذي كان رابضا في جسم الأمة الإسلامية آنذاك ومسلمي الشام على الخصوص لم يكن ضعفا عسكريا كما يتوهمه البعض بقدر ما كان الخلاف السياسي و العسكري بين القوى الإسلامية بالمنطقة، فلقد تعاقبت على حكم المنطقة قوى إسلامية في القوة بمكان إلا أن الصراع ظل سجالا لم يتوقف عن جانبه العسكري فحسب بل لقد اكتسى بعدا دينيا بعد أن صار صراعا مذهبيا بين خلافة سنية في بغداد يسيطر عليها السلاجقة الأتراك-عصر الحروب الصليبية- وخلافة شيعية فاطمية في القاهرة فكان طبيعيا أن يشتد الصراع ليؤمن كل منهما بقاءه .

الجيوش الإسلامية و الجيوش الصليبية :

كانت جيوش أمراء الإقطاعات الحربية السلجوقية متنوعة بتنوع سكان المنطقة المقطعة، حيث كانت تضم عناصر : عربية وتركية وكردية وتركمانية وغيرها [1]، كما و أنه باختلاف القواد الذين تناوبوا على المنطقة اختلفت أجناس الجند، فكان أكثرهم أتراكا من أواسط آسيا، كما كان من بينهم السلافيون والروم والكرج[2] والشراكسة « الديلم » والتركمان « الغز » والمغاربة و الأكراد والخوارزمية و الخراسانية [3] ،وكانت هذه الجيوش تضم عنصرين :

أ- وجود قوة ضاربة تدعى « العسكر » يحيطون بالسلطان، وتقوم هاته القوة بالمهام العادية، وتنفيذ العمليات الصغيرة، كتأديب العصاة من الإقطاعيين وهي مؤلفة من المماليك، ومن أعتق منهم.

ب-كانت العمليات الكبيرة تتطلب مساهمة حكام الولايات مع القوات التابعة لهم، فضلا عن أية احتياطات أخرى يمكن تجهيزها، وكان أفراد القبائل التركمانية العنصر السائد في هذه القوات[4] .

كانت غالبية الإقطاعيين من العبيد الذين تم شراؤهم، والذين ينتسبون إلى أسيادهم، أي الموالي، وكانت غالبيتهم من الأتراك، بالإضافة إلى الديالمة سكان المناطق الجبلية إلى الجنوب الغربي من بحر قزوين، كما وجدت

---

[1] - كمال بن مارس، العلاقة بين الموصل و حلب ودورها في الحرب الصليبية، ماجستير غير منشورة، جامعة عين شمس، مصر 1991، ص 14-30.

[2] - الكرج : قوم من أرمينية، وهم حاليا سكان جورجيا .

[3] - الخراسانية : لم تكن تمثل جنسا بقدر ما كانت تمثل طريقة قتال (النقابون) .

[4] - سميل: فن الحرب عند الصليبيين، ترجمة وليد جلاد، دار طلاس، ط1، دمشق، 1981، ص 117-118.

جماعات من الأرمن الذي خدموا على الأقل في عسكر دمشق ومصر، أما العناصر العربية فقد كانت بمثابة شبه مستقلة [1].

وعلى هذا النحو كان القوام الكامل لجيش السلطان « السلجوقي » يضم- إلى جانب الاحتياطيين من رجال القبائل- الأمراء الكبار في قواتهم: التي تتألف من قوة دائمة يحتفظ بها الأمير، أو الرجال الذين منحهم الأمير الأراضي أو عائداتها داخل إقطاعه الذي أقطعه إياه السلطات- مما يفهم أنه كان من حق الإقطاعي.أن يقطع من إقطاعه إقطاعات لرجالات جنده – وهكذا كان كل جيش من الجيوش السلاجقة مركبا [2].

كما أنه كان على المسلمين –كي يحموا أنفسهم من الهجمات البيزنطية- أن يجندوا جيشا قويا من المتطوعة، وتحضير الأهالي –حالة الحاجة- إلى دفاع قادر لاسيما في المراكز الإسلامية « الثغور » المتوغلة في الأراضي البيزنطية [3].

إذا كانت جيوش السلاجقة خليطا من الأجناس، فإنها واجهت جيوشا صليبية من أجناس مختلفة أوروبية وشرقية من مفارز مختلفة بحسب تسليحها، فقد كانت الجيوش الصليبية الذاهبة إلى بلاد الشام تتكون عن طريق التجنيد، وهو الالتزام العام الذي يحتم على كل رجل حر تجاه السلطة المركزية (الملوك)، ثم الجيش الإقطاعي، وهو الخدمة التي كان يدين بها المالكون

---

[1] – علي السيد محمود، ملامح الجانب العربي، مجلة المستقبل العربي: عدد 102، أوت 1987، بيروت، ص 42.

[2] – سميل، المرجع السابق، ص 118.

[3] - Emmannuel Sivan , L'Islam et les Croisades – Paris , 1968 , P11

الإقطاعيين من الطبقة العسكرية، والمرتزقة، ومفارز من الحجاج التي زادت أهميتها باستمرار، والتي شكلتها المنظمات الدينية : الداوية و الاسبتارية [1].

وكان الصليبيون الأوائل من الفرنسيين أو النورمانديين، ولعل ذلك ما يفسر لنا بأنهم كانوا الغالبية، لأن لغة الفرنجة هي التي كانت الغالبة على المجتمع الصليبي ببلاد الشام، كما أن تقاليدهم وعاداتهم أعطت ذلك المجتمع سمته الخاصة المميزة [2]، وبرغم عدد الفرنجة الكبير في الجيش الصليبي إلا أن العناصر المحلية من المسيحيين قد تفوقت عليهم [3]، أما الإيطاليون فقد تركزوا في لموانئ و الثغور، فكان لا يعنيهم في المقام الأول سوى مصالحهم التجارية، و التي بسببها دب الخلاف بين المدن الإيطالية : (جنوة، بيزا، البندقية) في المنطقة [4]، كما كانت جيوش الصليبيين تضم عناصر شرقية كالموارنة الذي

---

[1] – أحمد رمضان، حول وسائل الصراع الإسلامي الصليبي عبر الحروب الصليبية، مجلة المستقبل العربي، العدد 102، أوت 1987، ص 69.

[2] – الداوية : Templiers وتعني بيت الفقراء، نشأت بعد عشرين عاما من قيام هيئة الاسبتارية وظهرت في بيت المقدس باسم فرسان المعبد أو الداوية أو الديوية وخلال القرن 12 م تحولت إلى هيئة عسكرية .

[3] – الاسبتارية Hospitallers : وتعني بيت المرضى وهي نسبة إلى السبتار تحريف للكلمة، أسسها بعض تجار مدينة أمالفي عام 1070م/ 463 هـ في بيمارستان قرب كنيسة القيامة للعناية بالفقراء الحجاج الأوربيين، وقدموا مساعدات كبيرة للصليبيين حالة وصولهم بيت المقدس . سعيد عبد الفتاح عاشور، ملامح المجتمع الصليبي، مجلة المستقبل العربي، العدد 102، أوت 1987، ص 29، أنتوني بردج، الحروب الصليبية، ترجمة : احمد غسان سبانو ونبيل الجيرودي، دار قتيبة، دمشق، 1985، ص 119.

[4] – سعيد عبد الفتاح عاشور، ملامح المجتمع الصليبي، مجلة المستقبل العربي، العدد 102، أوت 1987، ص 29، أنتوني بردج، الحروب الصليبية، ترجمة : احمد غسان سبانو ونبيل الجيرودي، دار قتيبة، دمشق، 1985، ص 119.

عملوا- أولا- كأدلاء و عمال تراجمة لدى الصليبيين [1]، ثم انضموا إلى الجيش الصليبي في فرقة خاصة، أما الأرمن فقد كانت لهم اليد الطولى في استيلاء الصليبيين على الرها وأنطاكية أما الروم الأورثوذوكس فقد كانوا أكثر الطوائف المسيحية ببلاد الشام عددا خاصة في أنطاكية، وأما السوريان الأورثودوكس فقد كان أكثرية في كل من طرابلس وجبيل وبيروت وعكا ووجدت أعداد منهم في الرها وأنطاكية وبيت المقدس [2]، كما ضمت جيوش الصليبيين مجموعات من السكان المحليين في بلاد الشام ومن مختلف الأديان،منهم المشاة والخيالة، وكانوا يستخدمون كثيرا في الاستطلاع، وكفرسان رماة ،كالجند الأتراك و الذين أطلق عليهم « التركوبول » « Turcopoles »[3]؛ وكانوا يجندون لتكملة أعداد الفرسان الفرنجة التي لم تكن تفي بالحاجات دائما، وهم يشكلون جزءا من جيوش الصليبيين التي تطبق أساليب قتال غربية معدلة وفق المتطلبات التي تفرضها طرق قتال السلاجقة [4]، وعلينا أن نؤكد بأن مهام الفارس التركوبولي الأولى كانت الاستطلاع لملئ القصور الفرنجي في هذه الناحية من فن الحرب، كما أنه يمكننا استبعاد دورهم كفرسان خفاف في مواجهة الفارس السلجوقي، ذلك لأن هذه المهارة (خفة الحركة) كانت شيئا مميزا لدى المحاربين التركمان، وليس لدينا سبب يدعوننا إلى الافتراض بأن مختلف الأجناس المحلية في بلاد الشام كانت على دراية بأساليب القتال السلجوقية، بل إن الفرنجة كانوا يعهدون في إفساد التكتيكات السلجوقية إلى طرائقهم و أساليبهم التي تعودوها [5].

---

[1] – أنتوني بردج، نفس المرجع، ص 119.

[2] – سعيد عبد الفتاح عاشور، المقال السابق، ص 25.

[3] – محمد كرد علي، خطط الشام، ج2، المطبعة الحديثة، دمشق، 1925، ص 14، 15.

[4] – علي السيد محمود، المقال السابق، ص 47-49.

[5] – محمود إبراهيم، حطين ص 18، 19، سميل، المرجع السابق، ص 180.

وإذا كانت تلك هي عناصر الجيش الصليبي ببلاد الشام فإن المجتمع الصليبي كذلك كان مقسما إلى طبقات، بحسب مركز ونفوذ كل طبقة، فقد كان على رأس الهرم الفرسان الذين هم عماد الحركة الصليبية بوصفهم المحاربين الذي فتحوا البلاد، وعلى أكتافهم مسؤولية حماية الكيان الصليبي، حيث احتل الفارس مكانة هامة في المجتمع، وهذا ما يتفق بلا شك مع طبيعة الوجود الصليبي في بلاد الشام، فهو وجود عسكري استيطاني، لا يجد لنفسه أمانا في المحيط الإسلامي المعادي له سوى بتدعيم قواته القتالية التي كان أهم دعائمها الفرسان بطبيعة الحال: ويلي الفرسان في الأهمية رجال الدين الكاثوليك حيث كان يرافق الحملة الصليبية مندوب عن البابا ذو نفوذ واسع بين صفوف الصليبيين [1].

أما العامة فقد كانوا لا ينتمون لإحدى الطائفتين وغالبيتهم عبيد في بلادهم قدموا للتخلص من أوضاعهم المهنية في أوربا، وكانوا يشكلون أكثرية في المجتمع الصليبي ببلاد الشام، إلا أنها أكثرية غير فعالة، أما التجار فقد كان دورهم في المراكز التجارية و الموانئ و الثغور، أما الحجاج فقد كانوا يفدون على بلاد الشام في أعداد كبيرة، ولكن غالبية المسلحين منهم كانوا يعودون إلى بلادهم بعد وفائهم بنذورهم وزياراتهم الأماكن المقدسة [2].

والحقيقة الواضحة هي أن الدويلات الصليبية في المشرق-منذ الحملة الصليبية وبعدها- كانت دائما بحاجة إلى المساعدات الآتية من الغرب، سواء كانت في شكل تعزيزات عامة، أو في شكل أمراء منفردين , وكان وصول أي إقطاعي من أوربا مع أتباعه المسلحين إلى المشرق مناسبة لشن غزوة أو حملة، بحيث يمكن الاستفادة عمليا من تلك الزيارة ! إلا أن هذا النوع من التعزيزات

---

[1] - William de Tyre-(T2) p : 925

[2] - سميل، المرجع السابق، ص 181.

كان قليلا إذا ما قورن مع قدوم الحجاج السنوي الذي كان أكثر ديمومة- حيث يأتون سنويا تقريبا- وهم جاهزون لتقديم المساعدة عند الضرورة لأي أمير صليبي مقابل مصاريف يدفعها لهم .

كان المجتمع الصليبي ببلاد الشام يضم كذلك نسبة محدودة من المواليد نتيجة الزواج بالشرقيات كالأرمن و السوريان والموارنة، إلا أن الصليبيين قللوا من هذه الزيجات حتى يحافظوا على أنفسهم من الذوبان في المجتمع الشرقي، لذلك دأبوا بين الفينة و الأخرى- بقدر ما تسمح الظروف- على جلب مجموعات من النساء من غرب أوربا بغية تحقيق قدر من التوازن الجنسي في المحيط الصليبي ببلاد الشام [1] .

تعداد الجيش الصليبي :

إن موضوع تعداد الجيش الصليبي الوافد إلى بلاد الشام ظل موضوع خلاف بين المؤرخين، وبين حملة و أخرى، فمثلا : « Robert Fossier »[2] قدر عدد الحملة الواحدة بحيث لا تقل عن (1500) ولا تزيد عن (2000) من الفرسان، وما بين (12000) إلى (15000) من المشاة، إن هذا العدد زهيد إذا ما قورن بإحصائيات أفردها « Hans Delbruk »[3] إذ قدر عدد الذين قدموا مع الحملة الأولى بـ (100000) رجل من المسلحين الذين تحميهم زرديانهم ودروعهم وخوذاتهم، وكان عدد المستعدين للحرب يقدر بـ (600000) من بينهم عدد لا يحصى من العزل أو الحجاج قدر بـ (300000) إلا أنهم ما إن وصلوا أنطاكية في ذي الحجة 490 هـ/21 نوفمبر 1097 ولم يبق منهم سوى (150000) مقاتل Bellatorum .

---

[1] - انظر : سعيد عاشور، المثال السابق ص 27، 29 .

[2] - Rober Fossier , le Moyen , Age , Vol 2 Paris 1982

[3] - Hans Delbruck , the Art of war (Middle age) London ,vol3 P219

وقد ساق دلبروك هذه الإحصائيات من مصادر الحملة الأولى، إلا أنه علق عليها آخذا بعين الاعتبار كل التفاصيل، بأن العدد الضخم من الجيش أنه في الواقع لا يتعدى (105000) رجل من بينهم فقط (15000) قادرين بالفعل على القتال، ويضيف: «وبحذر شديد إن العدد الأعلى لجيش الحجاج كان لا يتعدى (60000) ولكن منهم فقط (10000) مسلحين تماما »، وبذلك فدلبروك يرى أن إجمالي عدد الحملة الأولى (60000) ولكن منهم فقط (10000) مقاتل لا غير، برأينا أن دلبروك كان زاهدا إلى حد ملفت للانتباه إذ أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال لعشرة آلاف (10000) مقاتل أن يعبروا مناطق واسعة من فرنسا نحو بيزنطة ويخوضون معارك عنيفة مع الأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى ويصلون أنطاكية ويدخلونها .

وكل الذين أوردوا أرقاما كانوا مغالين فيها إلى حد كبير، فقد ورد أن جودفيري « Gofroi » كان في ربيع أول عام 494هـ/1100 م في ثلاثمائة (300) فارسا و استطاع أن يخترق جدار السلاجقة، كما أنه كيف يستطيع الملك عموري « Amoury » بـ (374) فارسا أن يواجه (2000) من الأكراد على الأقل من جند شيركوه في مصر ؟!، تلك تساؤلات طرحت من « Regine Bernoud »[1].

وفي تقديرنا فإن كل الأعداد الضئيلة التي أوردها المؤرخون الغربيون لم تكن لتصل بلاد الشام، بل وتقدر على البقاء فيها تحت أي ظرف من الظروف.

فصائل الجيوش الإسلامية و الصليبية:

أ- الجيش الصليبي :

كانت القوة الرئيسية للقوات الصليبية هي قوة الفرسان، فقد كانت كلمة (Milites) حتى القرن 5هـ/11م تعني المحارب على ظهر الحصان بالسيف والرمح

---

(1) - Regine Bernoud , les Hommes de la Croisade , Paris 1963 PP143-144

يحميه قميص مدرع وقلنسوة فولاذية وترس [1] إلا أن هذه القوة كانت هجماتها فردية تفتقر إلى لحشد [2]،ولم تكن تنطلق بكاملها إلى الهجوم في آن واحد، بل كانت فرق الجيش تهاجم بالتتابع في مناسبات عدة، ولم تكن تلك الفرق تتقدم على محور واحد بل يقسمون إلى كراديس[3] عدة لا تقل عن خمسة أو ستة، ومتوسط تعدادها بين المائة (100) والمائة وخمسون (150) فارسا، و ترتب بشكل ثلاثي (ميمنة، قلب، ميسرة)، وكان الصليبيون يضطرون للقتال أحيانا بالرتل-الصف- وذلك عندما يهاجمون أثناء المسير، أما معارك الالتحام فيبدو أن الكراديس فيها اعتادوا أن يصطفوها متجانبة أو على نسق واحد [4]، مما لا شك فيه أن هذه التشكيلات كانت تتخذ في مناسبات معينة دون غيرها .

كان الفرسان الصليبيون يجتمعون في بداية المعركة تحت مكان مستور أو محمي، أو في بقعة مختارة، ويقدمون المشاة أمامهم على شكل صفوف و يسعون لاستدراج المسلمون للمبادرة بالهجوم، وفي اللحظة المناسبة كان الفرسان الثقال ينقضون شارعين رماحهم الطويلة القوية الأسطوانية الشكل مركزينها على موضع محدد [5]، ويظل الفرسان الصليبيون عند الزحف محاطين بالمشاة حملة السهام لحمايتهم من سهام المسلمين- إذا كانوا يتعرضون إلى سهام الخيالة المسلمين أثناء الزحف لأجل فتح ثغرة في صفوفهم- لذلك كان

---

[1] - أحمد رمضان، المقال السابق، ص 69.

[2] - أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، القاهرة، 1977، 328.

[3] - كردوس :كتيبة من المشاة تكون ما بين 500 إلى 800 جندي مشاة .

[4] - سميل المرجع السابق، ص 290-292.

[5] - سهيل زكار، حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى بيت المقدس، دار حسان ، ط1، دمشق، 1984، ص 110، عرف عن الفرسان الفرنج اعتمادهم على قوة الخرق المتأنية من اندفاع خيولهم القوية .

الصليبيون حريصين على أن لا يقع ذلك، فتجنبوا المعارك المتواصلة [1]، إذا اضطر فرسانهم للهجوم فإنهم لا يهاجمون كتلة واحدة، بل في فرق وكراديس متفرقة على محاور متعددة .

وكما اعتمد الجيش الصليبي على المشاة الذين نعتوا بالمشاة القساة جدا (Pedites Satallites Rigidissius)، وكان دورهم لا يرقى إلى دور الفرسان، فقد كانوا يقومون بالأعمال الإدارية، وأعمال الحصار ؛ وكان أهم مجموعاتهم مجموعة رماة السهام، وخاصة حملة النشاب المرتزقة من شمال إيطاليا[2].

ذهب المؤرخ العسكري للحروب الصليبية سميل [3]إلى الحط من قيمة المشاة الفرنجة وحصر أعمالهم والقول بعدم فاعليتهم في المعارك، إذ أن ما قاموا به من أعمال كانت ممكنة لآية مجموعة من الرجال الصامدين المسلحين بالقوس و الرمح في أي زمان من التاريخ .

إلا أننا نرى أن أي رجل لا يملك خبرة في الحرب، ولكنه يملك قوسا أو رمحا أو هراوة لابد وأن تكون له قيمة عسكرية ما، فكيف إذا توافرت مجموعة كبيرة إلى درجة كافية مثل هؤلاء الرجال في جيش الفرنجة فإن قيمتهم تصبح كبيرة جدا لا سيما إذا كان هناك رجال منهم يمتهنون الحرب (مرتزقة) وهم يقاتلون على أقدامهم، ومسلحون تسليحا حسنا يلبسون دروعا تقيهم جيدا ؛ وقد قام المشاة الفرنجة فعلا بأدوار مشهورة فقد أحبطوا هجمات المسلمين على مؤخرة الجيش الصليبي في معركة

أنطاكية : 492 هـ/1098 م .

---

[1] - محمود إبراهيم، المرجع لاسابق، ص 19-20.

[2] - محمود إبراهيم، المرجع السابق، ص 19-20.

[3] - سميل، المرجع السابق، ص 190.

ب-الجيش الإسلامي :

إنه إذا كانت القوة الرئيسية في الجيش الصليبي هي الفرسان، فكذلك في الجيش الإسلامي حيث كان رماة السهام الراكبة الذين كانوا قمة في خفة الحركة- مقارنة بالفارس الصليبي الثقيل- وخيولهم أسرع، وكان الراكب يحمل إلى جانب قوسه درعا صغيرا مستديرا ورمحا قصيرا وسيفا وهراوة، وغالبا كان المسلمون يقومون بالمبادأة بالهجوم التكتيكي مستغلين تفوقهم العددي وخفة حركة فرسانهم التي تمثلت في كثرة الهجمات وعمليات التطويق [1]، وقد جرت عادة الفرسان المسلمين السلاجقة أن يبدأوا حروبهم وهم على بعد إطلاق القوس، ولكي يحسموا المعركة يقتربون للتلاحم مع العدو محافظين على مسافة بينهم و بين عدوهم حتى يتمتعوا بحرية الاختيار بين الاستمرار في المعركة أو التخلي عنها بالانسحاب، وكانوا لا يقدمون على القتال المتلاحم إلا عندما يكونون قد أحدثوا تأثيرا هاما في خصمهم بالمناورة التي تعتمد على حركتهم [2]، هذه المناورة التي يستعملونها كطعم لكمين، فاستخدموا قوة قليلة العدد من الفرسان لإغراء العدو على مهاجمتهم و القضاء عليهم-أي تحريض العدو على المبادأة بالهجوم – وعندما يهاجمهم الصليبيون كانت هذه المجموعات الصغيرة من الفرسان السلاجقة تقوم بإغرائهم واستدراجهم لإيقاعهم في الكمين حيث القوة الرئيسية التي تظل متخفية حتى اللحظة الحاسمة [3]، إلا أن هذا النوع من القتال – حرب الكمائن- لا يحقق نصرا حاسما و لا يعتمد عليه إلا إذا كانت طبيعة الأرض تسمح باختفاء القوة الرئيسية للكمين، كما لا يؤخذ بهذا الأسلوب

---

[1] - أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص 328.

[2] - أحمد رمضان، المقال السابق، ص 73.

[3] - نفس المقال، ص 71-72.

القتالي إلا عند الحاجة للحصول على أسرى لاستيفاء المعلومات منهم، أو للعمل على إضعاف الروح الهجومية للعدو بكثرة بث هذا النوع من الكمائن .

تحدث المؤلف المجهول [1] الذي عاصر الحملة الصليبية الأولى عن قوة الفرسان المسلمون السلاجقة ومناوراتهم عند معركة أنطاكية قائلا: « قلما وجدنا أحدا يساويهم في القوة و الشجاعة وفن القتال، فلم يكونوا يتربصون لنا في ناحية واحدة بل كنا نجدهم يكمنون في كل الجهات، فآونة نلقاهم في طريقنا إلى البحر، وآونة أخرى في طريقنا للجبل ».

كانت مناورة التطويق السلجوقية شيئا طبيعيا لهجوم الفرسان النبالة الذين يستفيدون من حركتهم عند إقامة التماس مع العدو في الكر عليه ومن كل الجهات، وهم يفعلون ذلك في كل الظروف ومهما كان عددهم، حتى لو كانوا أقل عدا من العدو[2]، وكان المسلمون السلاجقة بفضل خيولهم و أسلحتهم أخف حركة من الفرنجة، فقد استغلوا هذه الحركية في أربعة أوجه :

الوجه الأول : أنها كانت تمكنهم من البقاء بعيدا عن العدو واختيار اللحظة المناسبة للالتحام معه .

الوجه الثاني : فيتمثل في التقهقر المضلل الذي يمتد إلى أيام بهدف إرهاق الفرنجة و إبعادهم عن قواعدهم جاذبيهم إلى كمين مهيأ، وكانت مثل هذه الخطة تكفي لتحقيق نجاح ضئيل أو كسب معركة طبقا لمستوى الذي تطبق فيه

---

[1] – المؤلف المجهول، أعمال الفرنجة (Gesta francorum)، ترجمة : حسن حبشي، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1958، ص 50.

[2] : انظر (– (Raimundus des Aguilers , R.H.C. Hist) occ.Vol3 P244 , Foulcher des chartres , R.H.C , Hist occ Vol3 , pp 421-423 , Mathieu d'edesse , R.H.C documents Armenien , T1 , P 93.

الوجه الثالث : فكان المسلمون يستفيدون من حركيتهم لمهاجمة جناحي العدو ومؤخرته محاولين تطويقه من جميع الجوانب أو على الأقل ملتفين حوله من جانب أو جانبين كالهلال، لذلك كان لزاما على الجيش الصليبي أن يراقب ظهره باستمرار .

الوجه الرابع : فإن المسلمين كانوا يستغلون حركيتهم لمهاجمة العدو و إرغامه على القتال أثناء المسير كي لا يتركوا له الفرصة بتنظيم نفسه- لأن الصليبيين كانوا يهوون ترتيب فصائلهم – وكان هذا الخطر يتأتى لاسيما في المؤخرة لذلك اتخذ الصليبيون إجراءات وقائية أشد، وأعطوا اهتماما كبيرا لحرس المؤخرة [1].

كان المسلمون السلاجقة أثناء القتال يبقون جناحيهما (الأيمن و الأيسر) غير مرتبطين إطلاقا مع القلب، فقد كانت أطلابهم [2] تقف وكأنها منفصلة عن بعضها البعض و إذا هوجم الجناح الأيمن فإن القلب سيضرب بعنف ومعه باقي الجيش كله المتمركز خلفه محيطين بالعدو إحاطة تامة و يطلقون سهامهم و ينظمون دفاعهم على مسافة من العدو[3].

وكانت صيحات القتال السلجوقية الرهيبة و القرع الوحشي للطبول يتركان أثرا عميقا على الفرنج [4]، فيرعبون العدو « بنشر الرايات ودق الكوسات ونعير البوقات وأصوات الطبول »[5].

---

[1] – سميل، المرجع السابق، ص 133-137.

[2] – **الأطلاب** : جمع طلب وهو لفظ كردي معناه الأمير الذي يقوم على مائتي فارس في ميدان القتال، ويطلق أيضا على قائد 170 فارس، ثم عدل و أصبح معناه كتيبة .

[3] – سميل، المرجع السابق، ص 289-290.

[4] – Foulcher des Chartes , op-cit pp 334-335

[5] – الهروي، التذكرة، ميكروفيلم بالمعهد العربي للمخطوطات القاهرة رقم 17 فنون حربة ورقة 91.

أما المشاة (الرجالة) الإسلامية كان من أهم عناصرهم المشاة الرماة الذين كانوا يقفون في صفوف متراصة يتقدمهم حاملوا الرماح لصد هجمات الفرسان الأعداء، وقد يتقدم الفرسان أو يتأخرون عنهم [1] وكانوا يثبتون جدارتهم عند القتال في الأراضي الوعرة [2].

ملابس الفرسان و المشاة الإسلامية و الصليبية :

كان الرجالة المسلمون يلبسون الأقبية- ثوب مقوى يلبس فوق اللباس العادي- و التكلاوات- غطاء يوضع فوق الرأس لتمييزهم عن جند العدو- ثم يلبسون القباء الإسلامي – ثوب يغطي المقاتل- كما يلبسون أقبية قصيرة متدلية إلى تحت الركبة وسراويل ونعالا، وكانوا يشدون السيوف من جهة اليسار ويضعون الصولق على الجانب الأيمن – كيس على الحزام توضع فيه حاجات السفر من زاد وغيره- والكزلك أو السكين أو الخنجر من جهة اليمين-.

أما الفرسان المسلمون فكانوا يلبسون الدروع و الخوذة المصنوعة من الصلب و المحلاة بريش النسور، سلاحهم النبال، وأثناء القتال المتلاحم يستعملون السيف و الرمح و الدبوس: وكانوا يهاجمون أولا بالسهام ثم بالرماح و بالسيف، ولكن برهنت سهامهم دائما على تأثيرها المميت ضد الخيول أكثر منها ضد الرجال الذي كانوا يبالغون في لبس الحديد [3].

---

[1] – عبد الله حسين، الدولة الإسلامية، ص 425، سوادي عبد محمد، الأحوال الاجتماعية في الجزيرة العربية، القرن السادس هجري، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد 1989، ص 445.

[2] – Foulcher des Chartes , op-cit p 478

[3] – انظر : عبد الله حسين، المرجع السابق ص 425، سوادي عبد محمد، المرجع السابق، ص 445، سميل، المرجع السابق، ص 174، 185، 186، سهيل زكار، المرجع السابق، ص 108-109، محمود إبراهيم، المرجع السابق، ص 21-27. Foulcher des Chartes , op-cit p

أما الفارس الصليبي فكانت تقيه زردية وخوذة فولاذية وترس ويقاتل على الفرس بالسيف والرمح، وحدثت تطورات في لباس و أسلحة الفارس الصليبي في أواخر القرن 5 هـ/11 م إذ زاد طول الزردية حتى الركبتين لتشمل أطرافه أيضا، كما أطيلت الأكمام و الحاشية المتدلية من أسفل الزردية حتى غطت الساعد و الرسغ وكف اليد و الساق و القدم، كذلك أضيفت قلنسوة من الزرد تحمي الرقبة ومعظم أجزاء الوجه، وهكذا أصبح الدرع و الحصان المطلوب لحمل الفارس أثقل وزنا وأبهظ تكلفة .

أما الراجل الصليبي فكان يحميه معطف من الجلد السميك و المبطن بلبد سميكة من الأقمشة أو فضلات الثياب، ويغطون في بعض الأحيان بدروع صدرية من المعدن، و يرتدي خوذة حديدية، وربما حمل الراجل الصليبي ترسا- الدرع الكبير- في بعض الأحيان، وكان سلاحه حربة أو قوسا، وتسلح بعض الرجالة بالفؤوس أو بالقسي الثقيلة الصعبة الحمل قصيرة الطلقات إذا ما قورنت بمثيلاتها الإسلامية؛ إلا أن قوتها الخارقة أعظم بكثير، فقد كان بإمكان سهامهم خرق الدروع، كما أن قدرة العقر فيها كانت أعظم، ولذلك نلاحظ أن هذا السلاح غاليا ما كان أداة إعاقة للفرسان المسلمين و بخاصة النبالة منهم [1].

والسؤال الذي يطرح نفسه علينا هو إلى أي مدى نجحت المؤسستان العسكرية الإسلامية والصليبية في تحقيق أغراضهما بالمنطقة ؟

---

335 جمعة الجندي، حياة الفرنج و نظمهم في الشام خلال القرنين 13/12، ماجستير غير منشورة، عين شمس 1982 ،ص 219-220.

[1] - انظر : عبد الله حسين، المرجع السابق ص 425، سوادي عبد محمد، المرجع السابق، ص 445، سميل، المرجع السابق، ص 174، 185، 186، سهيل زكار، المرجع السابق، ص 108-109، محمود إبراهيم، المرجع السابق، ص 21-27. Foulcher des Chartes , op-cit p 335 جمعة الجندي، حياة الفرنج و نظمهم في الشام خلال القرنين 13/12، ماجستير غير منشورة، عين شمس 1982 ،ص 219-220.

لقد ترك السلاجقة في ساحات المعارك ضد البيزنطيين ومن بعدهم الصليبيين انطباعا خاصا ذلك أنهم خلفوا لأعدائهم الإحساس الشديد بالخوف والإعجاب في نفس الوقت، فقد كانت تشكيلات قواتهم قبل المعركة على هيئة صفوف متراصة يحملون سيوفهم و أقواسهم متأهبين للقتال في كل لحظة [1]؛ إلا أن جيوش الأمراء السلاجقة كانت في بداية القرن 6 هـ/12 م مركبة – وظلت كذلك- وبدون قيادة فاعلة نتيجة الوضع السياسي للسلطنة ولوضع المؤسسات الحكومية، ولحجم القوة العسكرية المطلوبة لتحقيق النصر على الفرنج، وكان ينقصها التلاحم، كما كانت عرضة للتفكك من تلقاء ذاتها، ولذا كان باستطاعة الفرنج أن يجنوا ثمار الميزات الهامة بحملة دفاعية مظفرة دون تعريض أنفسهم لمخاطر خوض المعركة، وهذا ما كانوا يفعلونه [2].

كما أن الأساليب القتالية السلجوقية تميزت بميزات جعلتها تتفوق على الأساليب الصليبية إذ أن أسلوب مهاجمة العدو من الجناحين و المؤخرة مع عملية تطويق في أكثر من موضع مثل النحل، تتبع بهجوم من كل اتجاه، كانت كفيلة بأن تحدث ارتباكا ظاهرا في صفوف الجيش اللاتيني الذي كان عليه أن ينظر دائما نحو مؤخرته، لأن اللاتين لم يكونوا على علم بهذه الأساليب القتالية، كما تميز السلاجقة بخفة حركتهم أثناء مهاجتهم للعدو، و القدرة على إرغامه على القتال أثناء المسير نحو المكان المقترح للمعركة، وكان هذا الأسلوب مزعجا ومربكا للصليبيين لأنهم تعودوا ألا يقاتلوا إلا بعد أن يصفوا قواتهم في هيئة القتال (ميمنة – قلب – ميسرة)، كما تميز الفارس السلجوقي بالقدرة و المهارة في الرمي بالسهام أثناء عدوه بالخيل، ولم تقتصر هذه المهارة على الرمي إلى الأمام فحسب بل إلى الخلف، إذ كان بوسع الفارس أن يدور في

---

[1] – سميل، المرجع السابق، ص 119-121.

[2] – سميل، المرجع السابق، ص 119-121.

السرج ويطلق السهام على مطارديه، كما كانت رمايات الفرسان السلاجقة مرتفعة حتى وصفت وكأنها ذرات المطر أو العاصفة المطيرة [1].

كما تميز كذلك الفرسان السلاجقة بالقدرة على المناورة التي لم تكن تتم على نسق واحد بل اتخذت أشكالا مختلفة، فقد يستمر تراجعهم في بعض الأحيان لعدة أيام ؛ وكانوا يهدفون من وراء ذلك إلى إرهاق العدو واستدراجه بعيدا عن قواعده والقضاء عليه في مناطق قتال مناسبة [2].

وكان على الصليبيين أن تتخذوا في مقابل ذلك إجراءات يستطيعون بفضلها مواجهة الهجمات من أي اتجاه تأتي و بخاصة الأجناب والمؤخرة، فاهتموا بحرس المؤخرة كما كان عليهم أن يضمنوا عدم انفصال فرسانهم عن مشاتهم وعدم ترك ثغرة في الرتل يستغلها السلاجقة وبسرعة لصالحهم، لذلك كان على كل رجل من مقاتليهم أن لا يبرح مكانه في الرتل أثناء المسير [3].

كان بوهيمند واضع هذه الإجراءات الوقائية الذي كان قد فهم طبيعة ارض الشام فوضع تكتيكات صليبية جديدة، كانت في مجموعها تكتيكات دفاعية راعت الحرص و اليقظة أثناء التقدم لتجنب التطويق و المفاجأة فكانت القوات الصليبية تتحرك مع وجود حرس قوي من رماة السهام عل الأجنات (الجناحين) و المؤخرة لحماية الفرسان حتى تحين اللحظة لهجومهم [4].

كان السلاجقة يتحاشون المواجهة المباشرة مع الصليبيين لأن ذلك يعني أن تكتسحهم الخيالة المدرعة الثقيلة، ولذلك كانوا يتجنبون المعارك المفتوحة التي كانت تسمح باستخدام الخيالة المدرعة الصليبية بشكل فعال،

---

[1] - أحمد رمضان، المقال السابق، ص 72.

[2] - نفس المقال، ص 71.

[3] - سميل، المرجع السابق، ص 289 .

[4] - أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص 328-329.

وكان السلاجقة يفضلون القتال في المناطق التلية و الجبلية عن المناطق السهلية لما توفره لهم من مميزات لاسيما أثناء الكمين و التراجع [1]. لذلك كان القواد السلاجقة لا يدخلون قتالا- بل لا يواصلون قتالا- إلا إذا كانت الأفضلية في النصر إلى جانبهم، وكانوا يتراجعون عن القتال إذا لم يحقق لهم ذلك بصفة عادية ودونما حرج [2].

أدرك السلاجقة أهمية المشاة الصليبيين كسلاح رديف، لذلك سعوا و بمختلف الطرق بفصلهم عن الفرسان، وكانوا إذا نجحوا في ذلك يربحون المعركة كما حدث في مناسبات كثيرة [3]هذا وقد اهتم المسلمون بدراسة أساليب القتال الصليبية وبدراسة كيفية إفسادها .

فابن منكلي (توفي القرن8 هـ) يصف تعبئتهم بقول [4]: « أن تجتمع الفرسان و تستدير الرجال عليهم بالطوارق- الدروع الكبيرة- حتى تكون دائرة عليهم كالسور محدقا بهم، وبين كل طارقتين رمح مصوب تجاه العدو وراءه قوس الرجل و يمشون إلى العدو خطوة خطوة، فإذا لم يجدوا مجالا وقفوا، وإذا وجدوا فرصة صاحوا بعلامة بينهم، ففتح الرجالة بابا، فخرج منه الفرسان سراعا، وحملوا حملة قلما يثبت العدو أمامهم، والرجالة خلفهم تهرول، فإن نالوا البغية و إلا رجعوا فدخلوا من الباب الذي خرجوا منه، وأغلق عليهم كما كان أولا، وتعبئتهم هذه كأنها مدينة تسير على وجه الأرض ».

---

[1] - جمعة الجندي، المرجع السابق، ص 228.

[2] - Charles Omar , the Art of war in Middle age (ad378-1378) New York 1960. P71.

[3] - سهيل زكار، المرجع السابق، ص 111.

[4] - ابن منكلي محمد، الأدلة الرسمية في التعابي الحربية: تحقيق: محمود شيت خطاب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد 1988، ص 190.

كما وصف ابن منكلي [1] طريقة إفساد طرائق القتال الصليبية و التي تنص على الإحاطة بهم من كل الجوانب ومناوشتهم حتى انكسارهم بإيجاد ثغرة في الرتل، أما إن هاجموا أولا فيرمون بالسهام النارية حتى تنفر خيولهم ثم يتبعون وترمى الخيول في أرجلها، ويضربون على رؤوسهم بالدبابيس و ليس بغيرها، أما السيوف فتستعمل للبعج في الوجوه و الأعين، لأنهم يبالغون في لبس الحديد .

وقد عمد النشابون المسلمون إلى قتل خيول الصليبيين حتى يفقروهم للخيل التي كانوا يستعملونها للركوب و الطعام أحيانا، ذلك لأن السهام الخفيفة السلجوقية لم تكن لها القدرة على اختراق الدروع الصليبية إلا في القليل النادر[2]؛ وحينما كانت فرس الفارس الصليبي تعقر كان يتعطل عن العمل ويصبح بلا حول و لا طول لا يمكنه بدروعه ورمحه الطويل القتال على الأرض عسكرا من فرسان المسلمين، إذ كان مثقلا بدروعه التي كانت تحمي جسده كله من رسغ اليد إلى كعب الرجل إلى الوجه الذي لم تترك فيه سوى فتحات التهوية و النظر، وقد كان هناك عامل آخر يساهم في إعاقة الفارس الصليبي وهو الحر، حيث الدروع المعدنية تمنع عملية التعرق، وكل جسم يصاب بالإنهاك عند عدم التعرق، لاسيما إذا علمنا أن غالبية المعارك كانت صيفا[3].

كما عانى الفرنجة كثيرا من قلة المدد البشري، فقد كانوا عندما يدفعون جيشا إلى الميدان في أيامهم الأولى يدركون تماما أنهم يعرضون معاقلهم للخطر، حيث تكاد تخلوا من المدافعين عنها ؛ ففي عام 513 هـ/1119 م قرر

---

[1] - نفس المصدر ص 191، انظر الطرسوسي، كتاب التبصرة (ميكروفيلم رقم 10 فنون حربية بالمعهد العربي للمخطوطات، القاهرة، ورقة 164) .

[2] - أحمد رمضان، المقال السابق، ص 72-73.

[3] - سهيل زكار، المرجع السابق، ص 109.

إيلغازي – صاحب حلب – مهاجمة تل الأثارب لأنه نمى إليه أن سيد القلعة قد تركها مع رجاله وفرسانه للحاق بأمير أنطاكية روجر في معركة ساحة الدم « Ager Sanguinus Pugna » ، كما فعل جميع أصحاب القلاع الفرنجية الأخرى بالمنطقة، إذ كانت القلاع تترك خالية بالمعنى الحرفي للكلمة من أجل مواجهة المسلمين في الميدان، وكان وجود سورية اللاتينية مرهونا في خاتمة المطاف بوجود جيش ميداني مناسب وحاميات للقلاع في آن واحد [1].

وبالرغم من الجهود التي بذلها ملوك بيت المقدس، فإن المناطق الريفية كانت قليلة السكان دائما، وقد تأيد فراغها بإعداد مناطق البور (الأراضي) و القرى المخربة [2]؛ فقد كان سكان الدول اللاتينية مع من كان بينهم من الغرباء و المسلمين أقل من القوى الإسلامية المهاجمة لهم، و التي كانت أكثر منهم تماسكا و اتحادا[3].

إذ أن مجموعات الجيش الصليبي التي قطعت مسافة (80000 كلم) اعتمدت على الحجاج الذين لم يلبثوا أن رجعوا من حيث أتوا، إضافة إلى عدم تعودهم على التكتيكات المحلية الإسلامية، كما قاسوا الكثير من حرارة الشمس لعدم علمهم بالمنطقة[4].

وإذا كان الصليبيون قد سيطروا حتى عام 541 هـ/1146 م على ممرات جبال طوروس و أعالي الفرات إلى الرها، وكانوا يراقبون خليج العقبة في

---

(1) – سميل، المرجع السابق، ص 171-173 .

(2) – جونثان رايلي سميث، الاسبتارية فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص، 1050-1310، ترجمة : صبحي الجابي، دار طلاس ط1، دمشق 1989، ص 23.

(3) – زكي نقاش، العلاقات الاجتماعية و الثقافية والاقتصادية بين العرب و الإفرنج، خلال الحروب الصليبية، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1946، ص 32.

(4) – Robert Fossier , op-cit vol 2 p 434

الجنوب إلى غاية 581 هـ/1185 م ؛ إلا أنه في مقابل ذلك فإن الإمارات الإسلامية المتاخمة لمملكة بيت المقدس لم تسمح بالسيطرة على المناطق الداخلية الخصبة (دمشق- حلب - حمص- حماة) هذا من جهة ومن جهة أخرى أوجدت هذه الإمارات مشاكل لتوطين اللاتين الذي انحسر في الساحل، وكان ذلك سببا لنجاح هذه الإمارات (الإسلامية) فيما بعد [1].

ونتيجة لعدم ضمان وصول التعزيزات من أوربا عمد الصليبيون إلى تحسين علاقاتهم مع المسيحيين الشرقيين و بخاصة الأرمن و الموارنة، ثم شرعوا في بناء القلاع القوية في الأماكن المحصنة التي كان لها أهمية استراتيجية عظيمة للأغراض الدفاعية وكذا الهجومية، وكان ذلك منذ بداية حكم الملك بلدوين الأول (1100-1118/492-512 هـ)[2] إن هذه القلاع لم تكن ضرورية لو أن الفرنجة بدأوا عملهم الأول بالاستيلاء على أراضي دمشق وحلب[3].

ولكي يبقي الصليبيون على وجودهم كان لابد من الاستناد إلى القلاع[4]، و المدن الحصينة، فإذا كانت المعركة هي الأساس لتأسيس الدويلات اللاتينية في أول الغزو الصليبي، فإنه بظهور عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين، فإن هذا النجاح لم يكن يحقق الخلاص الدائم من ضغط المسلمين، لأن زعمائهم (المسلمين) كانوا يملكون موارد كافية لتكرار هجماتهم [5]، لذلك كانت القلاع والحصون ضرورة ملحة، لأن الحصار بطبيعته

---

(1) - IBID ,vol 2 , P261

(2) - عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق و الغرب في العصور الوسطة، ترجمة فيليب صابر سيف، دار الثقافة ط2، القاهرة 1972، ص 53.

(3) - R.Fedden ,crusades castles London P14

(4) - كانت وظيفة القلعة الدفاعية هي حماية التخوم أو السيطرة على الوادي أو غلق الطريق الواقعة عليه القلعة .

(5) - سميل، المرجع السابق، ص 215-216.

عملية صعبة في عصر تفوق التحصينات على أسلحة القذف (الرمي)، فإذا ما هددت المحاصر قوة ميدانية قادمة لتخفيف الضغط عن الحامية المحاصرة قد تصبح مشكلة الإبقاء على الحصار مسألة خطيرة قد تعرض الجند إلى الهلاك .

« لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر » [الحشر الآية 14].

القلاع ودورها في حماية الكيان الصليبي في بلاد الشام :

رصعت القلاع الصليبية من تخوم الشام الشمالية إلى الصحراء جنوب البحر الميت بعضها صغيرا و بعضها هائل مثل الكرك، ونادرا ما كانت تبتعد عن بعضها أكثر من مسافة مسيرة يوم واحد، وكان بإمكانها إنذار البعض باستعمال الإشارات الضوئية ليلا لعلوها كما كانت مزودة بالماء، وكان بعضها يمكنه الصمود لحصار سنة أو أكثر [1]، كما كانت هذه القلاع متينة قوية و سهلة الوضع من ناحية الدفاع فقد استخدموا كل منحدر وكل صغير إلى أقصى حد، وبالغ الصليبيون في زيادة سمك جدران القلاع و أطالوا

علوها كي تقاوم الهجمات المباشرة و الأسلحة الفتاكة، ولم يقيموا منشآت الدفاع الخارجية التي تقام عادة

أمام القلاع وذلك اقتصادا للجند، وكانت ساحة القلعة تسمح لوقاية قطعان الماشية أثناء غارات العدو[2].

وتكمن أهمية القلعة في أن صاحبها يستطيع أن يحتفظ بداخلها بالقوة اللازمة له للسيطرة على المقاطعة المحيطة بها و إدارة شؤونها وحمايتها، كما أنه

---

(1) - انظر : انتوني بردج، المرجع السابق، ص 192. Regine Bernoud , op-cit P 177

(2) - عبد الرحمان زكي، الحمارة العسكرية، المجلة التاريخية المصرية، م7 –لسنة 1958، ص124.

يستطيع أن يستخدم القوة ذاتها ليجني منافع في تلك المنطقة و استغلال سكانها[1].

إن أول قلعة بناها الصليبيون كانت صفد (Saphet) مشرفة على بحيرة طبرية- في عام 496 هـ/1102 م لتحمي مخاضة نهر الأردن، ثم بنوا قلعة تبنين (Toron) عام 501 هـ/1107م والتي تطل على الطريق بين دمشق وصور، وقد سقطت بأيدي المسلمين في عام 518 هـ/1124م، ثم بنوا قلعة أرنول (Arnoul) اضخم سبعة أعمال دفاعية منتصبة كي تحمي طريق الحجاج المسيحيين بين ميناء حيفا وبيت المقدس، ثم بنى الفرنجة قلعة حبيس جلدك (Habis Jaldak) التي على الكهف لمراقبة نهر اليرموك ،وفي عام 509 هـ/1115 م بنيت قلعة الشوبك (Montreal) إلى جنوب البحر الميت وهي تهدد الاتصالات بين دمشق و القاهرة، و بنيت قلعة الإسكندرونة (Scandelion) عام 510 هـ/ 1116 م، أما قلعة جزيرة فرعون (Ile de Gruye) فكانت مهيمنة على خليج العقبة في البحر الأحمر، و أخيرا استولى الصليبيون على القلعة الصغيرة صهيون (Saon) في جبل النصيرية التي كانت تحمي المناطق الجنوبية الشرقية القريبة من أنطاكية، ولأهميتها حولت إلى قلعة جبلية واسعة، ثم إن فترة الملك بلدوين الثاني : (1118-1131 م/512 -526 هـ) شهدت الاستيلاء على قلعة بانياس (Caesarea philippi) التي إلى غرب دمشق، ثم استولى الصليبيون على القلعة الهامة حرمون (Hermon) التي كانت تغلق المرور بين دمشق و أعالي نهر الأردن ؛ وفي فترة الملك فولك (Fulk) [1131-1144 م/ 526-538 هـ],جدت مرحلة فريدة للنجاح والازدهار تتوافق مع بناءات كثيرو ذات فاعلية كبرى، ففي الأعوام [1134-1143 م/ 532-538 هـ]أوجدت حلقة من القلاع : تل الصافية (Blanche Garde) و يبنى (Ibelin) و بيت جبريل (Beth Gibelin) تقوم كلها في الجنوب الغربي مطوقة عسقلان

---

[1] - سميل، المرجع السابق، ص 301.

(Ascalon) آخر ميناء سقط بيد الصليبيين- و تحمي القادمين من مصر، وفي عام 1139 م/ [illegible] أقام الفرنجة عملا مثيرا عند ذروة شقيف أرنون (Beau Fort) [1]مسيطرا على مجرى نهر الليطاني، وفي عام 538 هـ/1143 م شهد بناء حصن الكرك (Krak de Moab) القلعة الاستراتيجية إلى شرق البحر الميت، ثم تغيرت سيادة حصن الأكراد [2] (Krak des Chevalliers) إلى الفرسان الاسبتارية مما جعل منه أكبر حصن مؤثر في الساحة الفرنجية خلال القرن 6 هـ/12م [3].

الاستراتيجية المفقودة :

إن المنطقة الممتدة ما بين مملكة بيت المقدس و « كونتية طرابلس » و إمارة أنطاكية و كونتية الرها (لفترة خمسين عاما) كان طولها ما بين 400 إلى 500 ميل، ولكنها –باستثناء المنطقة الشمالية البعيدة التي كانت ممرا خطيرا كان عرضها قلما يتعدى 50 أو 45 ميلا، وفي الصحراء الواسعة إلى تخوم مملكة بيت المقدس كانت تقع أقوى مدينتين إسلاميتين حلب ودمشق اللتين لم يحتلهما الصليبيون قط، إنهما قاعدتان ملائمتان لتشكيل تهديد دائم، حيث منهما يستطيع المسلمون مرة بعد أخرى اختراق الأراضي اللاتينية، وبسلامتهما (حلب ودمشق) من أيدي الفرنجة تفتقد مملكة بيت المقدس أية قاعدة أو قلعة أو حتى مركز في حدودها الشرقية حتى 300 ميل في صحراء قليلة الماء أين لا يستطيع أي جيش معاد أن يكون فعالا فيها[4].

---

(1) – شقيف أرنون : يقع على نهر الليطاني و يبدو و كأنه عش نسر، وكلمة شقيف لغة سوريانية معناها الصخر العظيم، وأرنون بمعنى السيل المنهمر .

(2) – حصن الأكراد : و يعرف بقلعة الحصن الذي بني على أنقاض قلعة قديمة بناها أحد أمراء حمص سنة 427 هـ/ 1034 م وجعل فيها جماعة من الأكراد .

(3) – R.Fedden , op-cit , pp 14-15

(4) – IBID , P 11

لو أن الصليبيين كانوا حذقين إلى حد كاف لما أحجموا عن النزول إلى الجانب الشرقي للفرات، ثم لصمموا على التقدم إلى رأس خليج العقبة- إنهم استطاعوا أن يتفعوا بهذه الحدود الطبيعية و لكن عند الجنوب فقط- و بتلك الوسيلة يستطيعون عزل القاهرة عن دمشق، وعزل مكة عنهما الاثنين وذلك بزرع قواعد أمامية لمملكة بيت المقدس في أيلة و الكرك، إلا أن هذين الإستراتيجيين الخطيرتين لم تلق اهتماما لمدة أطول كما في الجناح الأيسر في الغرب على السواحل، وبذلك ظلت ممتلكات الفرنجة عبر الأردن مفتوحة للهجمات الإسلامية المضادة الواسعة من داخل آسيا، هذه الثغرة في دفاعات الفرنجة عن ممتلكاتهم كان يجب أن تسد منذ البداية من طرف قوات الحملة الأولى عوضا عن عبور الفرات و الاستيلاء على الرها المتعذر الدفاع عنها ؛ إن الصليبيين بذلك كانوا يستهلكون طاقة تضاهي التي ستبذل في احتلال حلب ذات الموقع بين الفرات و أنطاكية، وبذلك يحمون كل المناطق الممتدة من جنوب جبال طوروس وعبر الفرات إلى حافة السهل الشمالي لبلاد الجزيرة العربية، وإلى هذا الحد كانوا يستطيعون ضمان شمال بلاد الشام كله، وبعدئذ يضمنون الجنوب في حينه وذلك بالاستيلاء على الكرك و العقبة [1] وحينئذ كانوا يستطيعون إخضاع حماة وحمص ودمشق، العمق الاستراتيجي للخط الدفاعي الإسلامي (الموصل- حلب) وبهذه الاستراتيجية يمكنهم الفصل بين الخلافتين السنية في العراق و الشيعية في مصر، ويضمنون لأنفسهم الصمود أمام كلتا الخلافتين .

وإذا نظرنا إلى الحملة الصليبية الأولى فإننا لا نجد لها خطة عسكرية واحدة اعتمدت عليها في احتلال بلاد الشام، كذلك لم نجد لها بعد أن تمكنت من أن تسقط بيت المقدس 493 هـ/1099 م سياسة استيطانية ذات نسق واحد،

---

[1] – James A. Brundage , The crusades motives and Achievements , Boston 1964 , P 70

رجاء التوسع الاستيطاني الصليبي بعد الحملة الأولى ذو طابع استقلالي ذاتي، فقد اتخذ كل أمير من الأمراء في الرها و أنطاكية وطرابلس أسلوبه الخاص في الاحتفاظ بما في يده وفي إضافة مناطق أخرى جديدة [1].

كانت القوات الصليبية ضعيفة من الناحية العسكرية- في الحملة الأولى- وكان ينقصها الإلمام الكافي بالتكتيكات الحربية السليمة ومع ذلك أحرزت انتصارات كبيرة ومرد ذلك إلى انقسام العرب والسلاجقة على أنفسهم وقتذاك[2] ؛ إلا أن كفاءة الفرسان الصليبيين القتالية زادت إلى حد ما خلال القرن 6 هـ/12 م و تمثل هذا في قوة تدريعهم، كما أصبحت دروعهم أكثر أتقانا و إحكاما، ووصلت القمصان المعدنية حتى الركبة، كما أن أطراف الجسم أصبحت محمية بقطع من الدروع على شكل شبكة,أما القلنسوة فقد أصبحت ضيقة لحماية الرقبة، كما حلت خوذات ضخمة على شكل قدو محل الخوذات المخروطية الشكل وغطت هذه الخوذات كل الرأس مع وجود فتحات لتمكين الرؤية و التنفس، أما حصان الفارس فقد كان من فصيلة خاصة يطلق عليها (ديستربي) و يحمى أيضا برداء معدني أو قماش سميك يشبه الألحفة، كما زاد طول الرمح زيادة طفيفة[3].

إما إذا نظرنا إلى حال الإمارات الصليبية بعد منتصف القرن 6 هـ/12 م نلاحظ أن كونية طرابلس قد فقدت بارين و الرفينة منذ عام 531 هـ/1136 م لصالح عماد الدين زنكي و بدأت الأخويات الرهبانية العسكرية الداوية و الاسبتارية تتولى مسؤوليات الدفاع عنها منذ أربعينيات القرن أما إمارة أنطاكية فنتيجة لضعفها فقد أسندت مهمة الدفاع عنها منذ الكارثة التي حلت بجيشها

---

(1) – احمد رمضان، المقال السابق، ص 66.

(2) – C.Omar , History of the art of war in the middle age vol2 New York 1959 P 25

(3) – أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص 328.

عند أرتاح عام (533 هـ/1140 م إلى الأخويات العسكرية، لذا نلاحظ أن السيد كان يعطي هيئة الإسبتار – على الخصوص- المناطق المعرضة للخطر، و التي لا يستطيع الدفاع عنها وذلك لأسباب دفاعية أو استعدادا لشن هجوم، وربما كان قسم كبير من هذه المناطق بيد العدو؛ مما يجعل الحصول على امتيازات فيها مقابل القيام بأعباء الدفاع عنها وبذل الجهود لاستردادها أمرا هاما[1].

[1] - جوناثان رايلي سميث: المرجع السابق: ص 30، 33، 60.